﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٗ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـوهـيـن كـيـد الـكـافـريـن، نهايتُه الهلاكُ، وسبيلُهُ البَوارُ

لَمّا تضمَّنتِ الآيةُ السّابقةُ إيقاعَ الإهانةِ بالكفّارِ في وقْعةِ بَدْرٍ، الوعدَ بإلزامِهم بالإهانةِ فيما يأتي؛ جاءت هذه الآيةُ لتُفَصِّلَ الأمرَ بتهديدِهم في قالبِ اسْتجلائِهم، فقالَ تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ - أيُّها الكُفّارُ - بعدَ هذا اليومِ كما اسْتفتحتُم في هذه الوقعةِ عند أخْذِ أسْتارِ الكعبةِ وقتَ خروجِكم بقولِكم: اللهمَّ انْصُرْ أهْدَى الحزبَيْن، وأكْرَمَ الجُندَيْن، وأعْلى الفِئتَيْن، وأفضلَ الدّينَيْن، ووقْتَ تَرائي الجَمعيْن، بقولِ أبي جَهْل: اللهمَّ أقطعُنا للرَّحِم، وآتانا ما لا يعلمُ، فأحِنْه الغداةَ، أتاكُمُ الفتحُ كما أتاكم في هذا اليوم، فقد جاءكُمُ في هذا اليومِ بنصرِ المؤمنينَ الفَتْحُ الَّذي اسْتفتحتُم له؛ لأنَّهم أهدَى الفئتَيْنِ وأكرمُ الطّائفتَيْن، وإنْ تنتهوا عن مِثْلِ هذهِ الأقوالِ والأفعالِ المتضمِّنةِ للشَّكِّ أوِ العنادِ، فهو خيرٌ لكم، وقد رأيتُم دلائلَ ذلك، وإن تعودوا إلى المُغالَبةِ؛ نَعُدْ إلى خِذلانِكم، ولن تُغنيَ عنكم جماعتُكم الَّتي تَرْجعونَ إليها للاعْتزازِ بها شيئًا ولو كَثُرتْ؛ لأنَّ اللهَ المَلِكَ الأعْظمَ مع المؤمنينَ الرّاسخينَ في الإيمان[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسْتَفْتِحُواْ﴾: الفَتْحُ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكال، وذلك ضربان: أحدهُما يُدرَكُ بالبصرِ، كفتحِ البابِ وفتحِ المتاعِ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 246/8.

فَتَحُواْ مَتَعَهُمْ﴾، والثّاني: يُدرَكُ بالبصيرةِ، كفتْحِ الهمِّ، وهو إزالةُ الغمِّ، وهو أضرُبٌ: أحدُها: في الأمورِ الدُّنيويَّة، كغمٍّ يُفرَّجُ، أو فقرٍ يُزالُ بإعطاءِ المالِ ونحوه، الثّاني: فتحُ المستغلقِ من العلوم، كقولِكَ: فلانٌ فتحَ من العلمِ بابًا مغلقًا، وفاتحةُ كلِّ شيءٍ: مبدؤُهُ الَّذي يُفتَحُ بهِ ما بعدَهُ، وبه سُمّيَ فاتحةُ الكتابِ، وفتحَ القضيَّةَ فِتاحًا: فصلَ الأمرَ فيها، وأزالَ الإغلاقَ عنها، قالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]، والاسْتفتاحُ: طلبُ الفَتْح[1]، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾، أي: طلبتُم الظَّفَرَ، أو طلبتُم الفَتاح، أي: الحُكْم - وهو المرادُ هنا - أو طلبتُم مبدأ الخيراتِ، فقد جاءكم ذلكَ بمجيءِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 89]، أي: يستنصرونَ اللّه ببعثةِ محمَّدٍ ﷺ[2].

2) ﴿فِئَتُكُمْ﴾: الفِئَةُ: الجماعةُ المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضُدِ، قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45][3]. وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾، أي: جماعتُكم، أو جمعُكم مِنَ الجُموعِ ما عَسَى أن تجمعوا[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّهُ تعالى للكفّارِ في هذهِ الآيةِ: إن تطلبوا حُكْمَ اللّهِ عليكم بالهلاكِ والهزيمةِ، فقد جاءكم ما تطلبونَ، وإن تنتهوا، وتُسْلِموا، وتتركوا عداوةَ النَّبيِّ ﷺ فهو خيرٌ لكم وأجدى، وإن تعودوا إلى محاربتِهِ؛ نَعُدْ نحنُ إلى نَصْرِه وهزيمتِكم، ولن تغنيَ جماعتُكم

حُكْم الله نازل على الكافرين، وتهكُّمهم مآلهُ الهلاكُ، وكلَّما عادوا، قوبلوا بمثلِ ما وقع بهم

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 621 - 622، وابن منظور، اللّسان: (فتح).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 621 - 622، والبغوي، معالم التَّنزيل: 342/3.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 650، والفيروزآبادي، القاموس: (فيأ).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 427/2.

وقوَّتُها شيئًا عنكم، ولو كَثُرتْ، وأنَّ اللهَ معَ المؤمنين بالنَّصرِ والتَّأييدِ والتَّوفيقِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

وردَ الاستئنافُ في الجملةِ الشَّرطيَّة: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ على سبيلِ التَّهكُّمِ وهذا التَّهكُّمُ تتضِّحُ صورتُهُ في استخدامِ البيانِ الإلهيِّ للفظِ (المجيء)، حيثُ جاءتْ جُمَلُ الشَّرطِ برُمَّتِها بيانًا لهذا المعنَى وتأكيدًا له، مع ما تضمَّنهُ من التَّوبيخِ لهم في قولِه: إنْ تطلبوا الفَتْحَ؛ فقد جاءكم، أي: كما تَرَوْنَهُ عليكم لا لكم، فيكونُ التَّهكُّمُ في نفسِ الفتحِ حيثُ وُضِعَ موضعَ ما يُقابلُه[2].

أسلوب التَّهكُّم بالمشركين، له أثر في أحوالهم ومآلهم

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِن﴾ دونَ إذا في قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿إِن﴾ دون (إذا)؛ لأنَّ ﴿إِن﴾ تفيدُ الشَّكَّ في الوقوعِ أو قلَّةِ الوقوعِ ونُدرتِه؛ بخلافِ (إذا) الَّتي تفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ، وعلى هذا فالمناسبُ هنا التَّعبيرُ بـ ﴿إِن﴾؛ لأنَّ أصلَ طلبِ الاستفتاحِ أن يكونَ في الخيرِ، وطلبِ النَّصرِ منَ اللهِ، والملاحظُ أنَّهُ جاء هنا من الكفّارِ، وكانت النَّتيجةُ على غيرِ ما يريدونَ، فهُزموا لعدمِ إيمانِهم باللهِ، فصارَ استفتاحُهم في حُكْمِ المعدومِ.

الاستفتاح مِنَ الكفّار ضياع وبوار

سرُّ اختيارِ ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ دونَ الدُّعاءِ:

آثرَ التَّعبيرَ بالاستفتاحِ لتعدُّدِ معانيه، ومنها الحُكْمُ، وهو المرادُ هنا؛ لأنَّ الحُكْمَ يكونُ بينَ أطرافٍ متنازعةٍ كلٌّ يدَّعي أنَّه صاحبُ الحقِّ، فيأتي الحكمُ ليزيلَ هذا التَّنازعَ، ولمّا كان الفتحُ معناهُ: إزالةُ الإغلاقِ، وهو كالحكمِ - أيضًا - في إزالةِ الإغلاقِ الموجودِ في

الاستفتاح إزالةُ الإغلاق، وقد كان كَفَرةُ قريش يدعون طلبًا للنّصر

(1) حجازي، التفسير الواضح: 100/8.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 512/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 298/9.

القضيَّةِ، وكفّارُ مكَّةَ في خصومتِهم مع النَّبيِّ ﷺ كانوا يستفتحونَ، ويقولون: "اللهمَّ انصر أعلى الجُندين، وأكرمَ الفئتين، وخيرَ القبيلتين"، فكانَ التَّعبيرُ بطلبِ الفتحِ هو المناسبُ لهذا السّياقِ، أمّا الدُّعاءُ؛ فهو عبادةٌ خالصةٌ للّهِ تعالى وكفّارُ مكَّةَ كانوا مشركين يدعونَ مع اللّه إلهًا آخرَ؛ لذلك لم يَرِدْ لفظُ الدُّعاء.

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿تَسْتَفْتِحُواْ﴾:

الاستفتاح دون إيمان يربط بالله، لا معنى له، ولا فائدة منه

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿تَسْتَفْتِحُواْ﴾ للعلمِ بهِ، فهم يستفتحونَ على المسلمينَ، ولمّا كان استفتاحُهم وهو طلبُ النَّصر على المسلمين على غيرِ منطقِ الفطرةِ والعقلِ؛ حُذِفَ، ولم يُذْكر.

بلاغةُ الاستعارةِ في مجيء الفتح:

أسلوب التّهكم من أبلغ البيان

في قولِه: ﴿جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ فيهِ اسْتعارةُ المجيءِ للحصولِ عندَهم تشبيهًا بمجيءِ المُنْجِد؛ لأنَّ جعْلَ الفتحِ جائيًا إيّاهم يقتضي أنَّ النَّصرَ كانَ في جانبِهم ولمنفعتِهم، والواقعُ يُخالفُ ذلك، فعُلِمَ أنَّ الخبرَ مُستعمَلٌ في التَّهكُّم بقرينةِ مخالفتِه الواقعَ بمَسمَعِ المُخاطَبينَ ومرآهم.

دلالةُ الخطابِ في سياق آية الاستفتاح:

التّعجيلُ بمواجهةِ المتهكّمين تثبيتٌ للمؤمنين الرّاسخين

جاءَ الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ موَجَّهًا للمشركين، فيكونُ الكلامُ اعتراضًا خوطِبَ به المشركونَ في خلالِ خطاباتِ المسلمينَ بمناسبةِ قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: 18]، والغرضُ من الاعتراضِ المعاجلةُ بالحديثِ عن مواجهةِ المتهكِّمين تثبيتًا للمؤمنين.

المشركونَ المتهكِّمونَ بالمؤمنين، أبعدُ ما يكونون عنِ النَّصرِ

بلاغة الالتفات على اعتبارِ الضَّميرِ في ﴿تَسْتَفْتِحُواْ﴾ للمشركين:

في قولِه: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ الآية، التفاتٌ من طريقِ الغَيْبَةِ الَّذي اقْتضاه قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وفيه تنبيهٌ

لهم، وبيانٌ لغفلتِهم عنِ الحقِّ؛ إذْ كيفَ يمكنُ أنْ يَسْتنصروا باللهِ، وهم أبعدُ ما يكونونَ عنه[1]؟.

بلاغةُ الإتيانِ بفعلِ الشَّرطِ مضارعًا دالًّا على الطَّلبِ مع مضيّ الحدَث:

المرادُ استحضارُ حالةِ تكريرِهم الدُّعاءَ، بالنَّصرِ على المؤمنين

وردَ قولُه تعالى: ﴿تَسْتَفْتِحُواْ﴾ بصيغةِ المضارعِ معَ أنَّ الفعلَ قد مضَى زمانُه، لقَصْدِ استحضارِ الحالةِ من تَكْريرِهمُ الدُّعاءَ بالنَّصرِ على المسلمين، وفي استحضارِ الحالةِ الماضيةِ تذكيرٌ لهم بالخزي والهزيمة اعتبارًا بآثارِها المديدةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ، في ﴿فَقَدْ﴾:

معاجلةُ المتهكِّم بمطلوبه، دالٌّ على شِدَّةِ غضبِ اللهِ عليه

عبَّر بالفاءِ في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ﴾ للدَّلالةِ على سرعةِ مجيءِ نتيجةِ الاستفتاحِ لهم بهزيمتِهم في يومِ بدرٍ، وفيه إشارةٌ إلى تعجُّلِهم في طلبِ الفتحِ.

دَلالةُ اقْترانِ جوابِ الشَّرطِ بـ (قد):

مجيءُ الهزيمةِ للمشركين أمرٌ محقَّقٌ لا مفرَّ منه

جاءتِ الفاءُ الرّابطةُ لجوابِ الشَّرطِ مقترنةً بـ (قدْ) الدّاخلةِ على الفعلِ الماضي ﴿جَآءَكُمُ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ وقوعِه، ويكونُ قولُه: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ معناهُ: نَصْرُ أعلاهما، وقد زعمتُم أنَّكم الأعلى، فالتَّهكُّم في المجيءِ، أو فقد جاءكم الهزيمةُ والقهرُ، فالتَّهكُّم في نفسِ الفتحِ، حيثُ وُضِعَ مَوضِعَ ما يقابلُهُ.

دَلالةُ تقديمِ المفعولِ بهِ على الفاعلِ:

تخصيصُهم بمزيدٍ مِنَ التَّهكُّم والازدراءِ

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ تقدَّمَ المفعولُ بهِ، وهو (كافُ) الخطابِ على الفاعلِ﴿ٱلْفَتْحُ﴾، وجاءَ هذا التَّقديمُ على خلافِ الأصلِ؛ ليدلَّ على التَّخصيصِ والعنايةِ بهِ والاهْتمامِ بأمرِه، والمعنى: فقد جاءَ المشركينَ الفتحُ، وهذا على معنَى التَّهكُّم - كما تقدَّم - أي: تخصيصُهم بمزيدٍ من التَّهكُّمِ والازْدراءِ، والاهتمامُ بشأنِ ما ظَنّوهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 298/9.

من أنَّ اللَّهَ ناصرُهم، بإحباطِهم وتأييسِهم إذْ ليس الأمرُ كما ظنّوا؛ بل هو وهْمٌ لا دليلَ عليه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جَآءَكُمُ﴾ في جوابِ الشَّرطِ:

عبَّرَ بالماضي في جوابِ الشَّرط لإفادةِ تحقُّقِ وقوعِ نتيجةِ الاستفتاحِ، وهو هزيمتُهم الَّتي صارت أمرًا محقَّقًا لا يُختَلفُ عليهِ.

كلُّ وعيدٍ مِنَ اللهِ محقَّقُ الوقوعِ

بلاغةُ إسنادِ المجيءِ إلى الفتحِ:

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ فيهِ اسْتعارةُ المجيءِ للحصولِ عند المشركينَ تشبيهًا بمجيءِ المُنجِد؛ لأنَّ جعْلَ الفَتحِ جائيًا إيّاهم يَقْتضي أنَّ النَّصرَ كان في جانبِهم ولمنفعتِهم، والواقعُ يُخالفُ ذلك، فكانَ في ذلك التَّشبيهِ إشعارٌ بالتَّهكُّم بهم وخِذْلانِهم والازْدراءِ بعقولِهم الَّتي لم تَعِ إلى زمنِ هذهِ الواقعةِ أنَّهم على باطلٍ، وأنَّ محمَّدًا ﷺ على حقٍّ[2].

التَّهكُّمُ والاستخفافُ بالمشركين، مزيد مِنَ التّهوين مِن حالهم ومكرهم

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفتحِ دونَ غيرِهِ:

قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بهِ دونَ غيرِهِ مِن بابِ التَّهكُّم بهم؛ لأنَّه وُضِعَ موضعَ ما يقابلهُ، وهو الهزيمةُ.

مَنْ خَذَلَه الله فلا ناصر له مِن دونه

دلالةُ عطفِ: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ على ما قبلَها[3]:

تظهرُ مناسبةُ عَطْفِ: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ إلى قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ما قبلَها: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ من باب عطفِ الوعيدِ على الوعد، والمعنى: انتهوا عن كُفرِكم بعدَ ظُهورِ الحقِّ في جانبِ المسلمين[4].

عطفُ الوعدِ على الوعيدِ تعظيمٌ للوعدِ وترهيبٌ بالوعيدِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ(إن) في السّياق:

اختارَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَإِن﴾ في قولِه: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾؛ لأنَّها تفيدُ

(1) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 111.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 298/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 298/9.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 14/4.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 478/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 299/9.

الشَّكَّ، في الوقوعِ أو نُدرةِ الوقوعِ وقلَّتِه، وهو المناسبُ للسّياق؛ لأنَّ اللّٰهَ يعلمُ أنَّ مشركي مكَّةَ لن ينتهوا عن حربِ المسلمين بسهولةٍ، فسيحاولون مرّاتٍ ومرّاتٍ مقاتلةَ المسلمين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضًا منهم سينتهي عن مقاتلةِ المسلمين، وفي هذا إخبارٌ من اللّٰهِ تعالى بإيمانِ بعضِهم.

انتهاءُ الكافرين عن معاداةِ المؤمنين يقلُّ حدوثُهُ

دلالةُ الفعلِ ﴿تَنتَهُواْ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَنتَهُواْ﴾؛ لأنَّهُ يحملُ معنى الكفِّ عن أيِّ عملٍ عدائيٍّ للمسلمين أو العزم عليه؛ لأنَّ النَّهيَ هو الزَّجرُ عن الشَّيءِ، ومن حيثُ المعنى، لا فرقَ أن يكونَ بالقولِ أو بغيرِه، وما كان بالقولِ لا فرقَ أن يكونَ بلفظ: (اجتنب كذا)، أو بلفظ: (لا تفعل)، إذًا، لفظُ النَّهي أعمُّ مِن غيرِه، كالزَّجرِ مثلًا؛ لذلك اختارهُ القرآنُ، في تحذيرِ المشركين؛ لأنَّ الغرضَ انتهاؤهم عنِ القتالِ والمنازعةِ، وأيضًا الانتهاءُ عنِ الكفرِ والشِّركِ.

لا خيرَ إلّا في الانتهاءِ التّامِّ عنِ العداءِ قولًا وفعلًا

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالخيريَّةِ في قوله: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما هم عليه من الكفرِ والقتالِ للمسلمين شرٌّ لهم في دنياهم وأُخراهم، وأنَّ الانتهاءَ عن الكفرِ والقتال، هو الخيرُ لهم في الدُّنيا والآخرة، ولا يتأتَّى ذلك من لفظِ (أفضل) مثلًا؛ لأنَّه قد يشير إلى أنَّ ما هم عليهِ فيهِ فضلٌ، والأمرُ ليس كذلك.

الخيرُ الدّائمُ في الدُّنيا والآخرةِ، في التَّوحيدِ والانتهاءِ عنِ العداوةِ

دَلالةُ عَطفِ الشَّرطِ على الشَّرطِ:

جاءتْ جملةُ الشَّرطِ ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ﴾ معطوفةً على جملةِ الشَّرطِ سابقتِها، فكانَ ذلك عطفًا للشَّرطِ المتضمِّن للوعيدِ على قولِه: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾، أي: إنْ تعودوا إلى العنادِ والقتالِ؛ نَعُدْ، أي: نعُدْ إلى هَزْمِكم، كما فعلْنا بكم يومَ بَدْرٍ، وفي الاتِّفاق بين الشَّرط وجوابِهِ تأكيدٌ على أنَّ الجزاءَ من جنسِ العمل.

عودةُ الكفّارِ للقتالِ تعيدُ لهم الهزيمةَ، والجزاءُ من جنسِ العملِ

دَلالةُ حذفِ المتعلَّقِ في فعلِ الشَّرطِ ﴿تَعُودُواْ﴾ وجوابِهِ ﴿نَعُدْ﴾:

ضـرورةُ صِـدْقِ التَّوجُّهِ إلى اللهِ، والاعْتِمادِ على نصرِه دونَ سواهُ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ أي: إنْ تعودوا إلى طَلَبِ النَّصرِ؛ نَعُدْ، فننصُرْكم، أي: لا يَنقُصُ ذلكَ من عطائِنا، يُعلِمُهُمُ اللهُ صِدْقَ التَّوجُّهِ إليه، أي: لا تَعْتمدوا إلّا على نصرِ اللهِ[1].

وعلى أنَّ الكلامَ مع المشركين يكونُ المعنى: وإن تعودوا إلى قتالِ المسلمين؛ نعُدْ إلى قهرِكم وخذلانِكم، كما كان في يومِ بدرٍ.

دَلالةُ العطفِ بجملةٍ منفيَّةٍ ﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾:

تيئيسُ الكفّارِ مِنَ النَّصرِ حاضرًا ومستقبلًا، إذ لا أَمَلَ لهم في عون الله ونصره

جاءَ العطفُ بالجملةِ المنفيَّةِ ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ على ما تقدَّمها من العَوْدِ لهزيمتهم؛ إنْ عادوا للعِنادِ والقتالِ، تأْييسًا لهم من الانْتصارِ في المستقبلِ كُلِّه، فالمشركونَ كانوا يومئذٍ واثقينَ بالنَّصرِ على المسلمينَ لِكَثْرَةِ عَدَدِهم وعُدَدِهم، فلم يكُ ينفعُهم ذلكَ كلُّه شيئًا؛ لأنَّه بلا إيمانٍ باللهِ، فهو كَسَرابٍ بقيعةٍ يحسَبُه الظَّمآنُ ماءً، حتَّى إذا جاءَه؛ لم يجدْه شيئًا[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَلَن﴾:

تأكيدُ نفيِ قدرةِ الجمعِ على نصرةِ المشركين تيئيسٌ لهم

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَلَن﴾ الَّتي تُفيدُ النَّفيَ المؤكَّدَ، وفي هذا تحذيرٌ للمشركين وإعلانٌ بهزيمتهم في كلِّ الأحوالِ مهما كانت معهم الكثرةُ من العددِ والعُدَّةِ، وفيه بشارةٌ بنصرِ المسلمين.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾ دونَ (لن تنفع):

نفيُ عدمِ الإغناءِ، مبالغةٌ في إذلالِ الكافرين

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾ دونَ (لن تنفع)؛ لأنَّ نفيَ الغنى مع أسبابِ وجودِهِ أبلغُ في الإذلالِ، وأشدُّ في التَّنكيلِ بهم، فهم يملكون أسبابَ الغنى بكثرةِ العدادِ والعُدَّة، ومع ذلك ما أغنتْ عنهم أموالُهم، ولا أولادُهم من إيقاعِ الهزيمةِ بهم في يومِ بدرٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 300/9 - 301.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، 299/9.

بلاغةُ تقديمِ المجرورِ ﴿عَنكُمْ﴾ على ﴿فِئَتُكُمْ﴾:

تقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿عَنكُمْ﴾ على ﴿فِئَتُكُمْ﴾ - وخاصَّةً بعد النَّفي ﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾، لحَصْرِ الإغْناءِ عنهم وتَخْصيصِه بالذّات من فئتِهم، أو من فئةِ غيرِهم، أي: من جَماعتِهم أو من جماعةِ غيرِهم، فالإغْناءُ أو عَدَمُهُ متعلِّقٌ بهم هم أنفسُهم؛ لأنَّهم هم الَّذين اسْتنصروا على المؤمنينَ ظنًّا منهم أنَّهم أهلٌ للغَلَبةِ والنَّصْرِ، فنفَى عنهم ذلكَ بالكُلِّيَّة؛ لأنَّهم معاندونَ متكبِّرونَ[1]، وفي تقديمِ شبهِ الجملةِ على الفاعلِ تخصيصٌ لهم بعدمِ قُدرةِ أحدٍ على نصرِهم؛ لأنَّهم المقصودونَ بالتَّبكيتِ.

تقديمُ المجرورِ لإفادةِ تخصيصِ عَدَمِ إغنائِهم، بجمعِهم أو جَمْعِ غيرِهم

تنوُّعُ المرادِ بضميرِ الخطابِ: ﴿عَنكُمْ﴾:

قد يكونُ المرادُ بكافِ الخطابِ المؤمنين، فالنَّصرُ غيرُ مضمونِ الحصولِ عليه إلّا إذا اسْتنصروا باللّهِ، واسْتَغْنَوْا بهِ عن غيرِه تعالى ولو كانتْ فئتُهم كثيرةً، وقد يكونُ المرادُ بكافِ الخطابِ المشركين، فالنَّصرُ غيرُ حاصلٍ لهم، ولو حَشَدوا له جمعًا كثيرًا منهم أو من غيرِهم؛ لأنَّهم غيرُ مؤمنينَ باللّهِ، والنَّصرُ من عندِه وبأمرِه[2].

ضميرُ الخطابِ يتناولُ المؤمنينَ والمشركين

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فِئَتُكُمْ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿فِئَتُكُمْ﴾؛ لأنَّ المرادَ بها الجماعةُ الَّذين يكونون رِدءًا للمحاربين، أو الجماعة المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُها إلى بعضٍ التَّعاضُدِ، وفي هذا إشارةٌ إلى قوَّتِها وتماسكها ضدَّ المسلمين؛ فالملاحظُ على هذا التَّعبيرِ أنَّه يشيرُ إلى أنَّ المشركين يعتمدونَ على ردْئِهم من الَّذين لم يشاركوا في غزوة بدرٍ بعد انهزامِ جيشِهم؛ لذلك لم يذكرِ القرآنُ كلمةَ جيشِهم؛ لأنَّه انهارَ ولم يَعُدْ لهُ وجودٌ في هذه المعركةِ، وفيه بشارةٌ بانهزامِ جيشٍ مشركي مكَّةَ، وأنَّهُ وإن طال الوقتُ لن يكونَ لهُ وجودٌ.

تقليلُ الكثرةِ كشفَ عن ضعفِ قوَّتِهم

(1) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 107 - 108.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 245/8 - 246، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بقولِهِ: ﴿شَيۡـٔٗا﴾، الَّتي جاءت في سياقِ النَّفي، وهي نكرةٌ؛ لأنَّها تدلُّ على عمومِ نفي الإغناءِ، والزّيادةِ في التَّيئيس مِنَ الاستفادةِ بفئتِهم وجماعتِهم.

التّكثيرُ يفيدُ المبالغةَ في التَّيئيسِ، مِنَ الاستفادةِ بفئتِهم

دَلالةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾:

﴿وَلَوۡ﴾ هنا امْتناعيَّةٌ حاليَّةٌ، جاءتْ مع الواوِ قبلَها في معنَى الحال، فجملتُها ﴿وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ حاليَّةٌ، أي: لن تُغنيَ عنكم فئتُكم شيئًا، والحالُ أنَّه لو كثُرَتْ ما أغْنتْكم، فكيفَ وفئتُكم قليلة[1]؟.

اتِّصالُ ما قبلَها بما بعدَها

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَأَنَّ﴾:

عُطِفَ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ما قبلَها؛ لأنَّها بمنزلةِ التَّعليلِ لتعليقِ جميعِ ما تقدَّم: لمجيءِ الفتحِ والتَّربُّصِ بالمشركين، فإنْ عادوا للقتالِ؛ عُدْنا لهزمِهم، والجموعُ الكثيرةُ لا تغني بدونِ إيمانِ أهلِها[2].

التَّعليلُ يكشفُ المقاصدَ، ويشرحُ صدورَ المؤمنين

بلاغةُ التَّذييلِ في ختامِ الآية:

العبرةُ بالخواتيم، فجاءتْ خاتمةُ هذه الآيةِ ببيانِ أهمّيَّةِ الإيمانِ في قلوبِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ وأنَّ معيَّةَ اللهِ بنصرِه وتأييدِه مُصاحِبةٌ للمؤمنين دونَ غيرِهم.

المؤمنونَ في معيَّةِ اللهِ ونصرتِهِ دائمًا

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

في ختامِ الآيةِ إظهارٌ في مقامِ الإضْمار؛ لأنَّ مُقتَضَى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: وإنَّ اللهَ معكم، فعدَلَ إلى الاسْمِ الظّاهرِ للإيماءِ إلى أنَّ سببَ عنايةِ اللهِ بهم هو إيمانُهم[3].

الإيمانُ باللهِ توفيقُ العنايةِ، وضمانُ الهداية

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 588/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 301/9.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

دلالة تعدُّدِ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿وَأَنَّ﴾:

التَّعليلُ والتَّأكيدُ يحقِّقانِ معيَّةَ المؤمنينِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ قراءتان: القراءةُ الأولى بفتحِ همزةِ (أنَّ)، وهي على تقديرِ لامِ التَّعليلِ، أي: ولأنَّ اللهَ معينُ المؤمنين، عطفًا على قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨﴾ [الأنفال: 18]، والقراءةُ الثّانيةُ: بكسرِ همزةِ (إنَّ)، على الاستئنافِ، فهو تذييلٌ للآيةِ في معنَى التَّعليل؛ لأنَّ التَّذييلَ لِما فيهِ مِنَ العُمومِ يَصْلُحُ لإفادةِ تعليلِ المُذَيَّلِ؛ لأنَّه بمنزلةِ المقدِّمةِ الكُبرَى للمقدِّمةِ الصُّغرَى[1].

دَلالةُ تعريفِ المسنَدِ إليهِ بالعَلميَّةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

تأكيد المهابةِ في القلوبِ، واليقينُ بأنَّ النَّصرَ من عندِ اللهِ وحدَهُ

اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ سَيِّدُ الأسماءِ وسَيِّدُ الأعلام، وإيرادُه هنا بالإسْنادِ إليهِ، لزَرْعِ المهابةِ في القلوب، واليقينِ التّامِّ بأنَّ النَّصرَ والتَّأييدَ والمعيَّةَ الحقيقيَّةَ هي من اللهِ وحدَه دونَ سواه، قالَ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: 10]، وقالَ ﷻ: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 160].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمعيَّةِ في قولِهِ: ﴿مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

كمالُ المعيَّةِ الإلهيَّةِ، معَ كمالِ العقيدةِ الإيمانيّة

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالمعيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لبيانِ أنَّ مناطَ المعيَّةِ الحقيقيَّةِ بالإيمان، أي: والأمرُ أنَّ اللهَ مع المؤمنين، فمعيَّةُ اللهِ مُتحقِّقةٌ مع الكاملينَ في الإيمانِ نصرًا وتأييدًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَتْح والنَّصْر:

الفتحُ: الحكمُ والفصلُ بين الشَّيئَيْن، ومنه الفصلُ بين الحقِّ والباطل، ويُطلقُ على الفصلِ بين الشَّيئَيْنِ ليظهرَ ما وراءَهما، ومنه: فتحُ الباب، ثمَّ اتُّسِعَ فيه، فقيلَ: فتحَ إلى المعنَى فتْحًا؛ إذا كَشَفَه،

الفتحُ: الفصلُ بين الحقِّ والباطلِ، والنَّصرُ؛ يختصُّ بالمعونةِ على الأعداءِ

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 588/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم، 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 588/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.

والفاتحُ: الحاكمُ، وقد فتحَ بينَهما، أي: حَكَم، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: 89][1].

أمّا النَّصرُ؛ فيختصُّ بالمعونةِ على الأعداءِ، والنُّصرةُ لا تكونُ إلّا على المنازِعِ المُغالبِ والخَصْمِ المناوئِ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51]، وقالَ ﷻ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح: 3]. وقالَ ﷻ: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الصّافّات: 116]، وعلى هذا؛ فالفتحُ أعمُّ والنَّصرُ أخصُّ.

الفِئَة والطّائِفَة:

الفئةُ: هي الجماعةُ المتفرِّقةُ مِن غيرِها، وتُطلَقُ على الجماعةِ المتظاهرةِ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضُد، قالَ تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾ [الأنفال: 45]. والفئةُ في الحرب: القومُ يكونون ردْءَ المحاربين، قالَ تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: 16]، ثمَّ قيلَ لجمعِ كُلِّ مَنْ يمنعُ أحدًا، وينصرُه: فئةٌ[2].

الفئةُ: الجماعةُ المتعاضِدةُ، وهي أليقُ بسياقِ الآيةِ مِنَ الطّائفة

والطّائفةُ: في الأصلِ الجماعةُ الَّتي من شأنِها الطَّوْفُ في البلادِ للسَّفر، ويجوزُ أنْ يكونَ أصلُها: الجماعةُ الَّتي تَستوي بها حَلْقةٌ يُطافُ عليها، ثمَّ كَثُرَ ذلكَ حتَّى سُمّيَ كلُّ جماعةٍ طائفةً، قالَ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحُجرات: 9][3]، وعلى هذا فالفئةُ أعمُّ مِنَ الطّائفةِ.

تَعودوا وترجِعوا:

الرُّجوعُ: فِعْلُ الشَّيءِ ثانيةً، ومصيرُه إلى حالٍ كانَ عليها. والعَوْدُ: يُستعمَلُ في هذا المعنَى على الحقيقةِ، ويُستعمَلُ في الابْتداءِ مجازًا، يُقالُ: قد عادَ إليَّ من فلانٍ مَكروهٌ، وإن لم يكنْ قد سبَقَه مكروهٌ قبلَ

العَوْدُ: فِعْلُ الشَّيءِ ثانيةً على الحقيقة، وفي الابتداء مَجازًا، فهو أوسع مدلولًا من الرُّجوعِ

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 396، والرّاغب، المفردات، ص: 621، وابن منظور، اللّسان: (فتح).
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 245/1، والعسكريّ، الفروق، ص: 396، والرّاغب، المفردات، ص: 650.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 334، والرّاغب، المفردات، ص: 531.

ذلك، وتأويلُه أنَّه لحقَني منه مَكْروهٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿*قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88]. والمعنَى: لَتَدْخُلُنَّ في ديننا، فإنَّه عليه السلام لم يكنْ على دينِهم قطُّ[1]. وقد اختارَ التَّعبيرَ بالعَودِ دونَ الرُّجوعِ؛ لأنَّ العَوْدَ معناهُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ؛ بخلافِ الرُّجوع: فهو العودُ إلى ما كانَ منهُ البدءُ، أو تقديرُ البدءِ مكانًا أو فعلًا أو قولًا[2]. وعلى هذا، فالتَّعبيرُ بالعَودِ هو المناسِبُ للسّياق؛ لأنَّه تحذيرُ المشركين مِنَ العَودِ إلى قتال المسلمين بعد انصرافِهم عنهُ بالهزيمةِ.

المجيء والإتيان:

آثرَ التَّعبيرَ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ، لوجودِ فرقٍ بينهما، حيث يتميَّزُ المجيءُ بالصُّعوبةِ؛ فهو بذلك يختلفُ عن الإتيانِ؛ لذلك ناسبَ التَّعبيرُ بالمجيء هنا لما لحقَهم من القتلِ والأسرِ، فالمجيءُ لم يكن سهلًا، إنَّما كان صعبًا عليهم بما جلبَهُ لهم من القتلِ والأسرِ.

كـلا الـلّـفـظَـيـنِ يعني الإقبال إلى مكان أو شيء، ولكنّ المجيء فيه صعوبة ومشقّة

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 250، والحسينيّ، الكلّيّات: 390/2، والجُرجاني، التَّعريفات، ص: 114، 164.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (عود - رجع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»